المصدر: السفير
التاريخ : ١٩ سبتمبر ٢٠٠٥

لبنان والخطوة الأخيرة من المنعطف: من هنا يبدأ المستقبل

كمال البكّاري

بالأمس، وبمجرد الإعلان عن أسماء الاشخاص (وهم مسؤولون سابقون في الدولة) الذين استدعتهم لجنة التحقيق الدولية للتحقيق معهم بوصفهم مشتبهاً بهم في جريمة اغتيال الرئيس الحريري، رأينا الكثير من الخوف في القول والكثير من القلق والترقب في العيون (...) يخشى الكثيرون من أن يهتز البلد بكامله كلما تقدم العمل التحقيقي... رأينا في ذلك الكثير من الفائض في الكلام، والكثير من التهويل والكثير من الأوهام مرفوقة بالهواجس والتنبؤات.

رأينا الكثير من القلق والخوف والترقب والتهويل والأوهام والتنبؤات وكان التساؤل: أن لماذا يفكر اللبنانيون أو جزء كبير منهم على الأقل، في هذا النحو، وفي لحظة تاريخية معتاصة كهذه؟ ما الذي يستدعي كل هذا اللغط، كل هذه المخاوف، كل هذه الأوهام؟

(...) كثيراً ما يجد المرء نفسه أمام وقائع، يقول معها: لكأن اللبنانيين تقاسموا التعب والفوضى وانقسموا. فمن متشائم سيطرت عليه فكرة اللاجدوى، الى خائف متوجس من مستقبل ينظر اليه من وراء ريبية قاتلة. ومن مستعيض عن وطن، يخشى أن يكون قد سقط سهواً بعد أن فقد رباطه بالحداثة وبالعصر فجأة، بحضن الملّة الضيق، الى باحث عن أمنه وحياته بعيداً. ومن عارف بالحقائق مدفوع لابتلاعها بلا هوادة خوفاً على حياته، الى مسلّم بحتمية أن <<الفوضى الخلاقة>> كفيلة بأن تخلق نظامها...

ويكاد المرء يفقد صوابه بين مشارب كهذه، لكنه سرعان ما يعود مدفوعاً الى تكذيب تلك الوقائع مقتنعاً اقتناعاً تاماً بأن الأوهام التي تستبد بالبعض كثيرة وخطيرة، وقد تدفع الى قراءة الوقائع. والأحداث قراءة خاطئة تماماً لا يمكن أن ينتج عنها إلا سوء فادح في التقدير وفشل ذريع في التدبير. ثم يعود التساؤل ان لماذا يفكر اللبنانيون في هذا النحو، وفي لحظة تاريخية شديدة الاعتياص، وفي الخطوة الأخيرة من المنعطف؟!

ونرى الإجابة عن هذا التساؤل في السؤال الذي نطرحه على اللبنانيين جميعا: هل هو ان التفكير في <<لبنان>> أم في الطائفة؟! ونضيف: آن التفكير في هذا النحو، المنتج للهواجس والمخاوف والأوهام، إنما لأن الانهمام والاهتمام يتم، على الأرجح، لحساب الطائفة لا لحساب لبنان، لحساب

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

المذهب لا لحساب الوطن. إن الأنظار إذاً تذهب صوب اتجاه آخر فتخطئ التصويب في الاتجاه المطلوب الآن أكثر من أي وقت آخر. الحقيق الآن هو أن تتوجه الأبصار والبصائر الى الوطن لا الى الطائفة، الى لبنان لا الى المذهب أو الملّة. إن الطائفة الوحيدة التي يجب أن تنشدّ اليها الأنظار والقلوب وتنشغل بها الأذهان والعقول إنما هي <<لبنان>> وليست أي طائفة اخرى. فلا يصدقن أحد أن ثمة من معنى للطائفة اذا لم يكن مستمداً من المعنى الذي للبنان. ولا يتوهمنَّ أحد أن المعنى الخاص الذي له كفرد، كمواطن، مستمد من المذهب، لا من الوطن. وإنه لحقيق بكل لبناني أن يتنبه الى أن الطوائف تتعدد لكن لبنان يبقى واحداً. وأنه يستطيع أن يستعيض عن طائفته أو عن مذهبه بطائفة اخرى أو بمذهب آخر من دون أن يفقد لبنانيته أو يُنقص منها في شيء. غير أنه لا يستطيع أن يستعيض عن لبنان بأي وطن آخر غيره من دون أن يفقد لبنانيته.

(...) لماذا الخوف من كشف الحقيقة، حقيقة من اغتال الرئيس رفيق الحريري ورفاقه، في حين أن ذلك الكشف سيكون كفيلاً، ولا ريب، بطي صفحة الاغتيالات المتلاحقة التي كانت تستهدف اغتيال لبنان في رموزه وشخصياته الفذة، وبإغلاق آخر ثغرة يطل منها الموت على وطن الحياة. لماذا الخوف من ضمان مستقبل البلد وضمان مستقبل البلد مرهون بالكشف عن مصدر طاقة العدم التي انقضت فجأة، وفي عز الظهيرة، على مصادر طاقة القوة والحياة التي أعادت لبنان الى الوجود بأن سحبته من بين أنياب العدم وأرسلته بخطى واثقة على طريق المستقبل الواعد بكل ازدهار.

(...) إن مستقبل لبنان نراه ابتداء من تجاوز الخطوة الأخيرة من المنعطف الذي دخله جذرياً منذ فترة، في اتجاه مرحلة جديدة واضحة مشرقة. ونحسب أن تجاوز تلك الخطوة الاخيرة من المنعطف، باتجاه مستقبل واثق وواعد، لا يمكن أن تتم إلا إذا اجتمع أهل الحكم عملانياً على مسائل نراها رئيسة حاسمة، وعملوا بلا تردد، وبكل جرأة وحكمة على حلّها. وأهم هذه المسائل، في ما نرى، ثلاث نطرحها كالتالي:

1 دعوة المجتمع الدولي الى تحمل مسؤولياته كاملة في دفع قوات الاحتلال الى الانسحاب من الاراضي اللبنانية التي ما تزال محتلة (مزارع شبعا) فوراً ومن دون أي شروط.

2 العمل على إقامة علاقات أخوّة وتعاون وشراكة بين لبنان وسوريا على أسس صحيحة وواضحة.

على أن مثل هذه العلاقات، في ما نرى، لا يمكن أن تقوم على غير القواعد المعمول بها بين الدول

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الشقيقة والصديقة: تبادل التمثيل الدبلوماسي وإعادة هيكلة المجلس الأعلى السوري اللبناني بما يمتّنه ويوضّح مهامه ويفعّل قراراته. فعلى أسس كهذه تبنى <<العلاقات المميزة>> التي تحفظ المصالح المشتركة في السياسة والأمن كما في الاقتصاد والتنمية، وتكفل للتعاون قواعده السليمة وشروطه الضرورية وقنواته وجسوره الرسمية الصحيحة باعتباره تعاوناً بين دولتين شقيقتين تجمع بينهما، بحكم روابط التاريخ والجغرافيا، وشائج كثيرة بل وعرى لا تنفصم.

إن إقامة العلاقات بين البلدين على هذه الأسس وحده الكفيل بضمان التعاون والتنسيق بما يضمن المصالح المشتركة بين الشعبين. وليس ثمة من شك في أن ذلك سيرفد العمل العربي المشترك باعتباره جزءاً منه، وحلقة من حلقاته.

(...) إن ترسيم الحدود بين البلدين وتبادل التمثيل الدبلوماسي وإعادة هيكلة المجلس المشترك، كل ذلك سيزيل الشكوك والمخاوف التي يمكن أن تساور أي لبناني بصدد المستقبل، مستقبل بلده وعلاقات بلده ببلد مجاور وشقيق. وسيقطع الطريق أمام أي تردد في التعاطي مع العلاقة بين الشعبين على أنها علاقات أخوة وصداقة بروابط لا تنفك. ونود لو ننبه مرة اخرى فنقول: إن الإبقاء على العلاقات بينهما على ما هي عليه أو حتى محاولة تطويرها على غير الأسس التي أشرنا إليها إنما هو ضرب من المراوغة والمراوحة، وعمل على الالتفاف على حقائق التاريخ وتعطيل لحركة النمو المشتركة بل وتعطيل للمستقبل، وسيكون ذلك ولا شك، دلالة على عدم وضوح الرؤى وتفضيلاً للمحافظة على الأخطاء الجسيمة والعطالة الفادحة التي حكمت على مدى سنوات وأدت الى ما أدت إليه.

3 اعتبار مسألة المقاومة مسألة لبنانية بحتة، يبقى القرار بشأنها قرار الشعب اللبناني، بمختلف تياراته السياسية واجتماعاته الطائفية والمذهبية، ممثلاً بالدولة وسلطاتها. لقد اعتبرت مسألة <<المقاومة>> حساسة وخطيرة، وكثيراً ما أعطيت حجماً ليس لها وهوية ليست هويتها، وتم تصويرها على أنها العقبة الكأداء في وجه مستقبل لبنان قبل أن تكون في وجه المجتمع الدولي. وكثيراً ما تهيّب اللبنانيون الحديث عنها، وكانت خطابات بعض اللبنانيين بصددها مبتورة يبتلع أصحابها مواقفهم ليعلنوا مواقف موازية، مجانبة، هاربة، تجعل الحديث في هذه المسألة حديثاً حولها وبعيداً عنها، عمومياتياً، متحفظاً، وكثيراً ما كانت الدعوات تؤكد الالتفاف حول المقاومة. وكثيراً ما كنا نرى أن تلك الدعوات ليست إلا دعوات للالتفاف على المواقف وعلى السياسات وعلى لبنان حاضراً ومستقبلاً.. وليس في ذلك نافع بل ضارّ كل الضرر ولا شك.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

بلغة أكثر وضوحاً نقول: نرى الأغلبية الغالبة، وكلّما تقدم الحديث ناحية موضوع <<المقاومة>> خيمت عليها الضبابية في الرؤى ولفها التردد والخوف في المواقف... ونضيف: تُدّخر الشجاعة ولا يُدّخر الخوف.

(...) ولأن الدولة لم تكن مجرد حاضنة ولا كان الشعب مجرد حاضن بل كانت منه ولأجله، ولأن أي اعتداء على لبنان من أقصاه الى أقصاه، هو اعتداء على لبنان أرضاً وشعباً، فإن الدفاع عنه واجب على الجميع من دون أي استثناء لجماعة أو طائفة. فليس الدفاع عن البلد من مسؤوليات البعض أو حكراً عليه دون البعض الآخر. ولقد قاوم اللبنانيون الحرب والاحتلال، وقاوموا الاحتلال بعد انتهاء الحرب. وكانت المقاومة من كل الجهات وعلى كل الجبهات بالسياسة، بالاقتصاد بالإدارة وبالسلاح (...) نرى ان المقاومة كانت متعددة الجبهات والوسائل، تستهدف البناء وإعادة البناء واستعادة الارض من المحتل. واذا كان هناك من جهة أو جماعة أو طائفة أو طوائف دفعت أكثر من غيرها، على هذه الجبهة أو تلك من جبهات المقاومة، فذلك يجب أن يراه الجميع على أنه درجة أعلى في الحسّ بالمسؤولية وفي الشعور بواجب أداء الواجب. غير أن ذلك لا يعطي أي امتياز لهذه الجماعة أو تلك، أو لهذه الطائفة أو تلك على حساب الآخرين، ولا يمنحها أي نفوذ أو سلطة أو أي قدرة تقريرية، أو فيتو، لأن ذلك سيكون لا على حساب كل الآخرين من اللبنانيين وحسب، بل سيكون على حساب البلد بأكمله، راهناً ومستقبلاً.

(...) نرى أن <<المقاومة>> مسألة لبنانية، وأن القرار بشأنها هو قرار اللبنانيين بمختلف تنوعهم السياسي والمذهبي والمتمثل في البرلمان الذي انتخبوه. وعليه نرى أن مناقشة هذا الموضوع هي بالأصل والفصل، بالقول والفعل من مهمات المجلس النيابي، يناقشه بالكثير من الصراحة والوضوح (بعيداً عن وسائل الاعلام والتسريبات) حتى يلتقي الجميع حول قرار يقبل به جميع اللبنانيين، يضمن أن لا تراجع عما تحقق ويحفظ قوة الدفع نحو المستقبل بكل ثقة.

(...) وبعد، فحقيق بنا أن ننتبه وننبه الى أن الملّة تبقى الوطن الروحي للأفراد كما للجماعات بما هي مقام الروح بالنسبة اليهم، بيد أن الوطن الذي هو مقام المواطنية لا يكون مستقلاً إلا بقدر ما ينتمي الى العصر، ولا يكون جامعاً إلا بقدر ما يجتمع أهله على أنه مقام المواطنية لكل منهم أفراد وجماعات. على ألا يكون الاستقلال ضرباً من التقوقع والانعزالية، بل استئنافاً واثقاً لقَدَرِ ذلك الاجتماع وارتباطاته الحاسمة بالعصر بما يضمن المشاركة الفعالة في صنع مستقبل إنسانيته.

(□) كاتب من تونس

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية